ورقة من تاريخ الاستشراق في المانيا:

تيودور نولدكه

عن اينو ليتمان

ولد المستشرق إينو ليتمان فى أولدنبورج فى ١٨٧٥/٩/١٦ ودرس فى جامعات برلين وهاله وجرايفزفالد وستراسبورغ. بدأ حياته التدريسية كمحاضر للغات الشرقية فى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة؛ ثم اشتغل كأستاذ للغات الشرقية فى جامعة ستراسبورغ عام ١٩٠٦، وفى جامعة جوتنجن عام ١٩١٤، وبون عام ١٩١٦، وأخيراً فى توبنجن من ١٩٢١ إلى ١٩٥١. وقد كان عضواً فى بعثات الآثار الامريكية إلى سوريا والحبشة وآسيا الصغرى؛ كما ترأس البعثة الأثرية الألمانية إلى الحبشة. ومن أهم مؤلفاته: «حول تفسير النقوش الثمودية (١٩٠٤)». و«تاريخ الأدب الاثيوبى (١٩٠٧)»؛ «مطبوعات حملة برنستون الاستكشافية إلى الحبشة» فى اربعة أجزاء (١٩١٠ — ١٩١٥)؛ «الكلمات الشرقية فى اللغة الألمانية» (١٩٢٠ و١٩٢٤)؛ «أول ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة بالألمانية» فى ستة أجزاء (١٩٢١ — ١٩٢٨ و١٩٥٢/١٩٥٤).

رغم الهدوء الذى كان يسود بوجه عام مجرى حياة المستشرق العظيم تيودور نولدكه، إلا أن مكاسبه العلمية وقوة نفوذه طبعت حقل الاستشراق بكامله خلال السبعين عاماً الأخيرة[١] بطابع شخصيته المؤثرة، ولولاه لما أمكن تصور أى تطور لهذا العلم.

ولد نولدكه فى الثانى من آذار (مارس) عام ١٨٣٦ فى مدينة هامبورج، حيث كان والده آنذاك عميداً للمعهد الثانوى المتوسط. وقد خلدت المدينة ذكره بتنصيبه مواطناً فخرياً وبتسمية شارع باسمه يوم عيد ميلاده التسعين.

وأسرة نولدكه واسعة الانتشار فى شمالى غربى ألمانيا، ويعود أصلها عبر عدة قرون إلى أحد وجهاء مدينة هلدسهايم، كان يعيش فى بداية القرن السادس عشر. وقد برز من عائلة نولدكه هذه عدد كبير من رجال الدين والمعلمين والموظفين. وقد كان العميد نولدكه فى هاربورج موظفاً أميناً كذلك، وكان بالنسبة لابنه مثالا للتفانى فى أداء الواجب، كما أيقظ فيه، كعالم للغات القديمة، حب علوم الأوائل، ذلك الحب الذى لازم الابن طيلة حياته. وكان نولدكه فى مطلع حياته صبياً ضعيفاً؛ ورغم أنه كان يشترك فى الألعاب الرياضية لفتية هاربورج، ويتحدث بلهجتهم، غير أن اشتراكه فى ذلك لم يتسم بالحيوية والقوة الكافية. وقد عوض عما كان يفتقر إليه من حرارة الاختلاط وعمق الاحتكاك الشخصى بالبيئة المحيطة به بقوة الملاحظة والانتباه. وكانت النظرية منذ حداثة سنه تحتل مكان العمل إلى حد بعيد. ولكن هذه النظرية لم تكن وهمية غريبة عن العالم، ولم تكن محدودة الافق. وبقراءة كتب الرحلات عن الشرق ودراسة الآداب الشرقية، تعرف نولدكه فى سن مبكرة على شعوب الشرق الأدنى أفضل من كثيرين ممن عاشوا الأعوام الطوال هناك. وكان يفتقر إلى الجانب العملى فى اللغات أيضاً؛ فلم يتح له إلا تعلم التكلم قليلا بالتركية فى ڤينا، كما كان فى لايدن يجيد التكلم بالهولندية. غير أن اللغات التى كان يتناولها بأبحاثه العلمية كانت أقرب إليه منها إلى أى شخص آخر من زملائه المختصين. وفى الخامسة عشرة من عمره اضطر الى التوقف عن الدراسة مدة ربع عام لاصابته بفقر فى الدم. وعندها انكب على دراسة العبرية بمفرده حتى توصل بعدها إلى اعفائه من مادة اللغة العبرية المدرسية. وكانت دراسته الرئيسية فى المدرسة تشتمل على اللغات القديمة التى راح يدرسها باجتهاد تحت اشراف والده فى هاربورج، وكذلك فى لنكن، حيث نقل هذا عام ١٨٤٩. وفى خريف عام ١٨٥٣ التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقاً، على حد قول أبيه. أما هو فقد كان ينوى دراسة اللغات القديمة والشرقية، غير أن شخصية الاستاذ إيڤالد[٢] الجبارة، وقد كان صديقاً لوالده، استحوذت عليه كلياً لدراسة الاستشراق وحده. وقد ظل مديناً لأستاذه طيلة

حياته، رغم أنه اضطر فيما بعد إلى الانفصال عنه شخصياً؛ وقد أدرك أن تأثير ايڤالد الرئيسى كان يكمن فى أنه كان كأستاذ يطلب من تلاميذه اكثر بكثير مما يقدرون عليه، بحيث كان بذلك يجبرهم على العمل الشديد والتفكير الحاد. وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد انكب على دراسة الفارسية والتركية، ثم تعلم السنسكريتية باشراف الاستاذ بنفاى[٣].

وفى عام ١٨٥٦ ظهر أول مؤلف لنولدكه. فقد تمكن من الفوز بالمسابقة العلمية للكلية، فطبع مؤلفه واعتبر فى الوقت نفسه اطروحة الدكتوراه بحيث نال فى اغسطس من العام نفسه هذه الدرجة العلمية. أما عنوان المؤلف باللاتينية فهو: "De origine et compositione Surarum qoranicarum ipsiusque Qorani" وترجمة ذلك بالعربية: «حول نشوء وتركيب السور القرآنية». أما نولدكه نفسه فقد دعا مؤلفه نتاج فتوة لا يتسم بالنضوج، وسر أنه تمكن من تخطيه بامتياز فى كتابه «تاريخ القرآن» الذى نشر عام ١٨٦٠. وقد كانت الفترة الواقعة بين ١٨٥٦ و١٨٦٠ أعوام «تجواله وترحاله». فقد اتجه اولا إلى ڤيينا للتعرف على مخطوطات المكتبة الملكية هناك، ماراً بمدينة لايبزج، حيث زار استاذ علوم اللغة العربية الشهير فلايشر[٤]. وكانت تساوره سراً فكرة الانتقال من هناك إلى الشرق؛ غير أن هذه الرغبة لم تتحقق، وطالما اعتراه الندم على عدم تمكنه من التعرف إلى الشرق بنفسه وبأم عينيه. وفى خريف ١٨٥٧ انتقل إلى لايدن حيث قضى شهوراً بهيجة فى العمل المجد على المخطوطات العربية الموجودة هناك فى حلقة من الزملاء المختصين الشباب. وعقد آنذاك اواصر صداقة عميقة مع ميشائيل يان دى خويه[٥]، المستشرق الهولندى العظيم. وفى تلك الأثناء أقامت اكاديمية المخطوطات الباريسية مسابقة موضوعها تاريخ القرآن. وكان نولدكه المرشح المناسب للفوز بهذه المهمة، وبالفعل فانه لم يفوت الفرصة، بل غادر لايدن قبل الموعد الذى كان مقرراً، ليدرس فى غوتا وبرلين مخطوطات كانت مهمة بالنسبة لعمله. وفى ربيع ١٨٥٨ جاء برلين وأتم فيها كتابة بحث المسابقة. ثم أرسل المخطوط باللغة اللاتينية إلى باريس، حيث كان قد وصل مخطوطان آخران كتبهما عالمان معروفان هما: الألمانى شپرنجر[٦] والايطالى أمارى[٧]. وما كان من الأكاديمية إلا أن ضاعفت الجائزة ووزعت المبلغ بالتساوى على الفائزين الثلاثة. وهكذا كان الشاب الذى لم يتجاوز سنه الاثنين والعشرين عاماً قد حل مسابقتين علميتين، كما فاز فى الثانية على صعيد واحد مع اثنين من رجال العلم البارزين كانا اكبر منه سناً. وبعد ذلك عمل على اتمام ترجمة ألمانية لكتابه الفائز أصدرها عام ١٨٦٠، وهى الكتاب الشهير الذى اشرنا إليه سابقاً: «تاريخ القرآن»، وهو أول مؤلفاته العظيمة الكثيرة. وبه دل على طريق البحث العلمى الصحيح فى الدراسات القرآنية. وقد أظهر هذا الكتاب مبكراً جميع خصائص طريقة نولدكه فى البحث؛ معرفة شاملة على أساس بحث أمين فى جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض مالا يقبل الاحتمال. وبطبيعة الحال فكان مما لابد منه أن تسبب طريقته هذه تنافراً بينه وبين استاذه إيڤالد، الذى كان رغم علمه وعبقريته، عاتياً متسلطاً شديد التعصب والايمان بنفسه، وهو استاذه الذى كرس له هذا الكتاب بالذات فى كلمة الاهداء. ثم مكث نولدكه عاماً ونصف العام فى برلين كمساعد فى المكتبة. وفى هذه الفترة تصادق مع عدد من العلماء والباحثين المسنين، كان لهم أثر طيب فى تعريفه بحقول جديدة من العلم والمعرفة. ولكن عندما وجه إليه مدير المكتبة عام ١٨٦٠ طلباً جائراً مس كرامته وحريته الشخصية، عزم بسرعة على الاستقالة وغادر عمله بعد أن وجه رسالة تنبض بالرجولة إلى رئيسه. وعلى أثر ذلك مضى إلى إيطاليا لمدة ربع عام، وساعده على تحقيق هذه الرحلة عم طيب غنى.

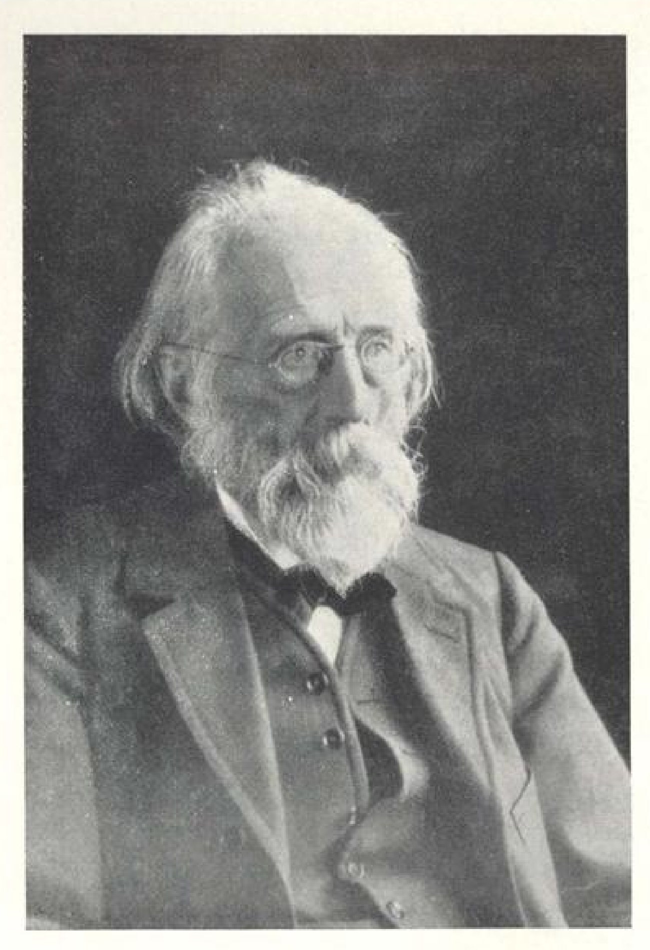
وقد كتب عن أعماله وتجاربه وانطباعاته أثناء «أعوام ترحاله» بالتفصيل فى رسائله إلى استاذه إيڤالد. وفى هذه الرسائل يحتل العلم المكان الأول، ولكنها لا تخلو كذلك من اهتمامه الحيوى بالأحداث العالمية. وفى بداية كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٠ عاد نولدكه إلى جوتنجن وأصبح فوراً مساعداً فى المكتبة. وفى ربيع ١٨٦١ قدم اطروحة الكفاءة التدريسية الجامعية وأصبح محاضراً خاصاً للغات السامية. وتخلى عن منصبه فى المكتبة بعد عام ونصف العام من جديد، إذ كان عمله فيها يعيقه كثيراً عن ابحاثه ودراساته العلمية. واهتم خلال تلك الفترة بالدرجة الأولى بالشعر العربى وباللغة التركية التى تعمق فى دراسة لهجاتها وبرع فيها.

وفى ربيع ١٨٦٤ استدعى إلى جامعة كيل ليخلف الاستاذ ديلمان[٨]. وظل هناك أربعة أعوام كأستاذ غير نظامى، ثم أربعة أعوام ونصف العام كأستاذ نظامى عام. وقد كان الاستدعاء إلى كيل، كما اعتقد نولدكه نفسه، الداعى الاول إلى خصومة لاگارد[٩]، الذى كان يعيش كأستاذ آنذاك فى ظروف بائسة جداً، والذى كان يأمل فى الحصول

على كرسى الاستاذية فى كيل. ولكن نولدكه لم يدعه يعانى طويلا من أجل ذلك، فحين أصبح منصب الاستاذ إيڤالد شاغراً عام ١٨٦٩، ورغم أنه كان يود أن يكون خليفة استاذه فى منصبه العلمى، إلا أنه كتب إلى جوتنجن قائلا: إنه لا يعرف أحداً يرغب فى التخلى من أجله عن منصب إيڤالد الشاغر أفضل من لاگارد، الذى يعتبره واحداً من أنبغ المستشرقين وأمتن العاملين خلقاً. حقـاً، لقد كان محزناً ذلك القدر الذى كان يبعد شخصياً أولئك العظماء الثلاثة: إيڤالد ولاگارد ونولدكه، الواحد منهم عن الآخر. ومن المسلم به أن طبائعهم كانت متباينة جداً. إذ لم يكن إيڤالد ليحتمل أية معارضة، وكان يعتبر الآراء التى تختلف عن آرائه وكأنها أخطاء خلقية؛ أما نولدكه فكان يؤمن بحق الرأى الحر لكل إنسان، وكان يناقش الجميع بتجرد وموضوعية. وبينما كان لاگارد رومانتيكياً، كان نولدكه، كما كان يقول بنفسه، عقلانياً. وكثيراً ما كان ايڤالد ولاگارد ينساقان بطريقتهما العاطفية إلى إصدار أحكام جائرة. أما نولدكه فقد كان فى القضايا العلمية مفعماً بروح العدل المجردة من العاطفة. وفى الرابع من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٦٩ بعث برسالة وداعية إلى إيڤالد، بعد أن سبق لهذا أن تعدى عليه عدة مرات بالكلام القاسى. وقد كانت رسالة قصيرة، وجيهة، حازمة، وقد أعرب فيها عن امتنانه واحترامه الدائم لاستاذه بأسلوب يملك الحواس. وكان نولدكه قبل ذلك قد تعرض بالتفصيل إلى وضعه مع إيڤالد فى رسائل إلى صديقه الأبوى ڤيزلر(١٠)، دون أن يفقد فى أى منها اسلوبه الواضح وروحه الموضوعية. وكان لاگارد يهاجم نولدكه كثيراً فى مؤلفاته، هجوماً علمياً وشخصياً. ويختم نولدكه دفاعه فى وجه هذه الهجمات بالكلمات التالية:

«أما أن أجيب على اتهامى بالتجنى المقصود على الحق، فهذا ما لا تقبل به كبريائى».

وفى الفترة التى قضاها فى كيل اهتم نولدكه بالعهد القديم، الذى كان عليه شرحه فى محاضراته، كما اهتم باللغة الآرامية بالدرجة الأولى. وأصدر آنذاك كتابى: «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» و«أبحاث فى نقد العهد القديم». وكان الأول عرضاً شعبياً، والثانى يشكل الأساس العلمى لذلك. ومع أن هذين الكتابين قد أصبحا قديمين فى معلوماتهما إلى حد ما، وخاصة بفضل مؤلفات ڤلهاوزن(١١) الطليعية فى هذا الحقل، فقد كانا عملين ممتازين فى عصرهما كافيين لإسباغ آيات الفخار على أى عالم مختص بشئون العهد القديم. ولم يكن نولدكه يعرف حلا وسطاً بين



Noch einmal meinen besten Dank und meine
volle Anerkennung Ihrer Leistung!
Ihr ergebener Th. Nöldeke

الاستاذ تيودور نولدكه قبيل وفاته.

الايمان والمعرفة. ولذا فقد هاجم كذلك «العقلانية الضعيفة، التى يلجأ إليها حتى مؤمنونا الراشدون اكثر فأكثر.» إذ أن «عقلانيته» كانت من عود قوى، كروحه، التى كانت تعمر فى جسد ضعيف كجسده.

وأما قيامه بالدراسات الآرامية فقد كان بمحض الصدفة. إذ أن مكتبة جامعة كيل، التى كانت لا تملك من الكتب الخاصة باللغات والشعوب السامية إلا النزر القليل، حصلت من مخلفات آدلر(١٢)، الذى توفى عام ١٨٣٤، وهو فى منصب المشرف الأعلى العام لمقاطعة شليزفيج — هولشتاين، على عدد كبير من المؤلفات الخاصة بالأدب السريانى. وكانت هذه الكتب هى الدافع إلى اهتمام نولدكه الآن بصورة أعمق وأدق باللغة الآرامية. وكما وضع الأبحاث القرآنية على قواعد متينة ثابتة فى كتابه «تاريخ القرآن»، فقد وضع الآن الاسس العلمية لدراسة اللغات السريانية، والسريانية الحديثة والمندعية. وظهر

كتاب قواعد السريانية الحديثة وهو لايزال فى كيل، بينما ظهركتابا قواعد السريانية والمندعية اثناء وجوده فى ستراسبورج. وتعتبر كتب القواعد الثلاثة مؤلفات طليعية من الدرجة الأولى إطلاقاً. ولتأليف الثلاثة فقد كان عليه أن يعمل منقباً فى مواد اللغة كلها بمنتهى الدقة والعناية. وأدت قواعد السريانية الحديثة بعد فترة جديدة إلى بحث اللغات السامية الحية، التى تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة. أما قواعد الآرامية الشرقية فقد كونت الأساس لا لفهم الأدب الآرامى الشرقى فحسب، بل وكذلك لتفهم كثير من مشاكل المقارنات اللغوية السامية؛ وكان كتاب قواعد السريانية، الذى صدر فيما بعد فى طبعة ثانية، وترجم كذلك إلى الانجليزية، عرضاً ممتازاً لهذه اللغة العظيمة الأهمية بالنسبة للشرق المسيحى. وفى ربيع ١٨٧٢ استدعى نولدكه إلى الجامعة الألمانية التى انشئت آنذاك حديثاً فى ستراسبورج؛ وفى خريف العام نفسه انتقل هناك وظل فيها حتى عام ١٩٢٠. وكان من المفروض أن يستدعى فى عام ١٨٧٦ إلى جامعة برلين، ولكن أحد تلاميذه تسبب فى عرقلة الاستدعاء وحصل على المنصب لنفسه. ثم رفض طلبات استدعاء إلى جامعات فيينا ولايبزج وجوتنجن، حيث كان مركزه فى ستراسبورج ثابت الجذور. ومع ذلك فقد ابتهج بوجه خاص لاستدعائه إلى جوتنجن، حيث كان المفروض أن يخلف لاگارد. ومنذ عام ١٩٠٦ أحيل نولدكه على المعاش. وعندما دخل الفرنسيون، بعد انكسار ألمانيا، أراضى الألزاس وأبعدوا جميع الألمان من ستراسبورج، لم يجرأوا أن يفعلوا ذلك مع هذا العالم الجليل، الذى اشتهر اسمه فى جميع أنحاء العالم. فغادر فى ربيع ١٩٢٠ المدينة بمحض اختياره واتجه إلى كارلزروهه ليقيم مع ابنه هناك. وظل هنا مدة أحد عشر عاماً قضاها فى يقظة فكرية تامة، إلى أن فارق الحياة فى صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٠ وهو متكئ على كرسى الشيخوخة، بعد أن كان فى اليوم السابق قد أتم قراءة رواية للأديب كونراد فرديناند ماير[١٣].

وفى ستراسبورج صدرت كتب نولدكه الرئيسية. وبفضله أصبحت ستراسبورج مركز الدراسات الشرقية ليس بالنسبة لألمانيا وحدها فحسب، بل وكذلك بالنسبة للعالم أجمع. وقد تعمد ألا يؤسس لنفسه «مدرسة» خاصة؛ ولكن جميع علماء اللغات السامية المعاصرين أصبحوا تلاميذه، سواء أدرسوا على يديه، أم استمدوا من كتبه عدتهم العلمية وسلاحهم للبحث والدراسة. وكانت حلقاته التدريسية التى كان يعقدها فى غرفة عمله تتناول مجموع حقل اللغات السامية باستثناء اللغة البابلية — الأشورية والنقوش العربية الجنوبية، كما كانت تشتمل كذلك على الفارسية الحديثة والتركية. وكان التلاميذ يترجمون، بينما كان يصحح ويقوم بالتعليق والشرح، لغة ومحتوى. وكان، كأستاذه إيڤالد، يفرض على تلامذته مطالب عالية؛ فتعلموا منه أن يكونوا أمناء فى أصغر التفاصيل، والا يفقدوا نظرتهم الى الكل عموماً، وأن يجتنبوا النظريات القلقة التى لا تصمد أمام النقد ولا تستند إلى الحجة والبرهان. وحين كان أحد التلاميذ يلحن فى القراءة أو يخطئ فى أحد بحور الشعر أو فى الترجمة، كان جسم الاستاذ الصغير الشديد الحركة يهتز بقلق يمنة ويسرة، كما كان، فى الحالات الشديدة، يتعالى فجأة من مكانه المعتاد فى زاوية المقعد الطويل احتجاجاً واستنكاراً للخطأ الفادح. وبعد إحالته على التقاعد ظل يعقد حلقاته التدريسية مرات عديدة، ويبحث فيها نصوصاً عربية وفارسية صعبة، وكان أفضل تلامذتى الخاصين يشتركون فى ساعاته التدريسية أيضاً. وقلما كان يقوم بالقاء المحاضرات المنتظمة. ورغم السهولة والسلاسة التى كانت بهما تنصاع له الكلمة المكتوبة، ورغم الحيوية وعمق الأثر والثروة الفكرية التى كانت تتصف بها أحاديثه — إلا أنه لم يكن يحب إلقاء الخطب العامة. وقد تخلى عن المحاضرات المتعلقة بالعهد القديم فى ستراسبورج عن قصد، إذ كان الاستاذ القدير ادوارد رويس[١٤] يمثل هذه المادة التعليمية خير تمثيل.

وبالإضافة إلى قواعد الآرامية الشرقية والسريانية، فقد ألف نولدكه فى ستراسبورج سلسلة كبيرة من الكتب، وخاصة فى حقول الدراسات العربية واللغات السامية المقارنة، والحكايات الخرافية الشرقية، والدراسات الإيرانية. وكان فى جوتنجن قد اشتغل على دراسة الشعر العربى القديم. وفى ستراسبورج ألف ترجمات وشروح خمس معلقات واعطى بذلك مثلا فريداً من نوعه فى وضوح التفسير، لغة ومتناً. ولغرض الدقة فى تحديد الحيوانات والنباتات التى وردت فى النصوص، كان يستشير علماء الحيوان والنبات. وببحثه حول «قواعد اللغة العربية الكلاسيكية» كان اول من عالج العربية معالجة جادة من حيث الاعتبار والعرض التاريخى. وتناولت أبحاث أخرى دين وتاريخ عرب الجاهلية حيث ظهرت بوجه خاص أهمية معرفته التامة للمصادر اللاتينية والإغريقية. فقد كانت هذه عوناً شديداً له فى جميع أبحاثه التاريخية، وكذلك فى ترجمته لكتاب تأريخى سريانى، وبوجه خاص فى كتابه «تاريخ الفرس والعرب فى عصر الساسانيين. مترجم من

Karlsruhe i/B. 27 Ettlingerstr. 53

Sehr geehrter Herr Doctor!

Besten Dank für die Uebersendung Ihrer Schrift, die ich mit grossem Interesse gelesen habe. Die grossen Erzählungen, durch die Sie sich durchgeschlagen haben, sind mir zum Teil unverzeihlich, zum Teil so gut wie gar nicht bekannt. Mit der Geschichte des Islâm's und des Reichs von Muhammeds ersten Auftreten bis in die Zeit, wo das Abbasidische Chalifat alle Kraft verliert, bin ich leidlich vertraut, aber was sich die Stürmer arabischer Sprache, wenn auch vielfach nicht arabischer Herkunft, über das Beduinenleben und die grossen Taten der alten Muslime erzählen, das hat mich nie recht angezogen. Natürlich ist es nicht immer leicht, die Geschichte von der Legende oder der willkürlichen Ausschmückung zu sondern. So glaube ich in der alten Ueberlieferung über den Tod des törichten Husein ziemlich das wirklich Geschehene zu erkennen, namentlich daß die Regierung sich die grösste Mühe gab, den Toren zum Aufgeben eines hoffnungslosen Unternehmens zu veranlassen, und daß die Führer der Regierungstruppen der Umajja[?] Agitation und keineswegs die blutdürstigen Wüteriche waren, wie sie die Legende darstellt. Daß in den Erzählungen über ~~[illegible]~~ [illegible] so ziemlich alles unhistorisch ist, daß es den Verfassern oder

من رسالة الأستاذ نولدكه الى الدكتور رودى پارت. (يوجد امضاء نولدكه لهذا المكتوب على ص ٣٥).
نشكر الأستاذ پارت فى جامعة توبنجن لتصريحهلنا بنشر هذه الرسالة، ولما افادنا به من معلومات قيمة عن تيودور نولدكه.

تاريخ الطبرى ومرفق بايضاحات وتتمات تفصيلية». وقد أدت دراسته للمصادر الفارسية إلى قيامه بدراسة الحماسيات القومية الإيرانية، التى قرأ من أجلها اسطورة الفردوسى المنظومة «شاهنامه» الضخم مرات عديدة، كما أدت أيضاً إلى أبحاثه حول اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) وأدبها، وهى تمتاز بالصعوبة الشديدة، وفى هذه الدراسات حدد نهائياً وبصورة قاطعة الطابع الحقيقى لهذه اللغة، تماماً كما فعل صديقه أندرياز(١٥). وقد اهتم كذلك بدراسة النقوش الفارسية القديمة بينما ترك الشعر الوجدانى الفارسى الحديث جانباً بسبب ازدواج معناه.

وقد كرس نولدكه لأبحاثه فى اللغات السامية المقارنة مؤلفين هما : «أبحاث فى علم اللغات السامية» و«أبحاث جديدة فى علم اللغات السامية». وبتمكن كامل من المادة، وبمعرفة للغات، لم يحصلها من كتب القواعد والقواميس، وانما من المصادر الأولية، عالج عدداً من المسائل اللغوية الهامة، متمسكاً فى ذلك دوماً بما هو قائم فعلا، ومجتنباً

So auch وَمَا جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ هَاجَرْتَ تَبْتَغِي ‚und nicht hast du dich entfernt, den Paradiesgarten zu suchen‘ Ham. 792 v. 3 und وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِالصَّمَّانِ مَا جَشِمُوا ‚und Gott weiss am besten, welche Mühe sie in S. auf sich nahmen‘ Ham. 284 v. 6. Aehnlich die Voransetzung eines zu einem Particip oder Verbaladjectiv mit Artikel gehörigen Ausdrucks: وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ ‚und nicht ist es eine Geschichte, die man nur so über sie erzählt‘ Zuhair, Mo. 29;

فَتًى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ   وَلَا فِي بُيُوتِ الْحَيِّ بِالْمُتَوَلِّجِ

‚ein Mann, der nicht mit dem elendesten Leben zufrieden ist und sich nicht in die Häuser des Stammes eindrängt‘ Ham. 764 v. 3;

وَالْحَرْبُ صَاحِبُهَا الصَّلِيبُ عَلَى تَلَاتُلِهَا الْعَزُومُ

‚und der Mann des Kampfes ist der Feste, der bei dessen Schwankungen energisch bleibt‘ Ham. 532 v. 1;

وَالْخَيْلُ أَجْوَدُهَا الْمُنَاهِبُ عِنْدَ كَبَّتِهَا الْأَزُومُ

‚und das beste Rennpferd ist das wettlaufende, das beim Ueberstürzen der Rosse bissig ist‘ Ham. 532 v. 5. Ein weiteres Beispiel Chiz. 3, 563.

Eine ungewöhnliche, aber auch den obigen Fällen ähnliche, Trennung des Zusammengehörigen ist in سَاقًا ذَاتَ فَقْدٍ عَلَى الْأَصْحَابِ = عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقًا ذَاتَ فَقْدٍ ‚ein Bein, das von den Genossen schmerzlich vermisst wird‘ Agh. 21, 69, 21 = Jaq. 1, 665, 12 und ebenso mit فَضْلٍ für فَقْدٍ ‚das den Genossen sehr werth ist‘ Agh. 21, 70, 1 = Jaq. 1, 665, 13.

Ganz ungewöhnlich hart ist die Wortstellung aber in folgenden Stellen: لَوْ أَنَّ كَرِيمِي صِيدَ هٰذَا أَعَاشَهُ = كَرِيمِي لَوْ أَنَّ هٰذَا صِيدَ أَعَاشَهُ ‚würde dieser erjagt, so erhielte er meinen Werthen (= Vater) am Leben‘ Hudh. 2, 14;

فَمَا مِنْ فَتًى كُنَّا مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا   بِهِ نَبْتَغِي مِنْهُمْ عَمِيدًا نُبَادِلُهْ

= فَمَا مِنْ فَتًى مِنَ النَّاسِ كُنَّا نَبْتَغِي بِهِ وَاحِدًا عَمِيدًا نُبَادِلُهُ ‚und es giebt unter den Menschen keinen Mann, den wir als einzigen für ihn zum Führer, der ihn ersetzen sollte, suchen möchten‘ Ham. 465 v. 3. Ferner der berüchtigte Vers Farazdaq's

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

‚und nicht giebt es unter den Menschen einen Lebenden, ihm nahekommend, ausser einem Fürsten, dessen Muttervater sein eigner Vater ist‘[1] Wright, Op. ar. 67 und sonst citiert.

[1] Der Angeredete ist ein mütterlicher Oheim des Chalifen Hišām (des ‚Fürsten‘).

الفرضيات القلقة. وقد ساعد بعدة أبحاث نقدية ومقالات ومنشورات صغيرة على تطوير المعرفة باللهجات العربية والحبشية، وكذلك بالنقوش السامية إلى حد بعيد.

وفى حقل القصص الخرافية الشرقية ألف عدداً كبيراً من المقالات والرسائل الكبيرة والصغيرة، أهمها: «بحث حول تاريخ رواية الأسكندر» و«دراسة حول رواية أحيقار». وساهم كذلك فى إلقاء الضوء على تاريخ قصص ألف ليلة وليلة، أو بعض حكايات هذه المجموعة، كما خاض البحث فى مجموعة قصص «كليلة ودمنة»، مقتفياً طريق انتقالها من الهند عبر إيران والشرق الأدنى إلى الغرب.

لقد كان نولدكه سيد الاسلوب العلمى والاسلوب الشعبى معاً. وإن خمسة من كتبه، وهى «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» الذى ذكرناه سابقاً، و«حياة محمد»، و«مقالات فى التاريخ الفارسى»، و«أبحاث شرقية» ثم بحث «اللغات السامية»، قد جعلت نتائج دراساته العلمية تراثاً عاماً للعالم المثقف.

وفى عيد ميلاده السبعين كُرس له مؤلف تذكارى بمجلدين، اشترك فى تأليف صفحاته الألف والمائتين مستشرقون عن الحقول العلمية ذات العلاقة بالاستشراق من جميع الدول وأجمعوا فى ذلك على مبايعته وتقديره. وفى عيد ميلاده الثمانين سرنى أن احمل إليه فى ستراسبورج كتاباً تذكاريا من جمعيتنا[١٦] مع كلمة إهداء من السيد إيلزر[١٧] ومنى. وطبع على الكتاب باللغة العربية البيت التالى:

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا من بعدنا إلى الآثار

ولكننا نحن الذين كنا مقربين إليه لا يمكن أن نفكر بمؤلفاته وأعماله دون الرجل نفسه. فقد كان جميع الذين تعرفوا إليه عن كثب يقدرونه ويولونه أبلغ آيات الاحترام. ففى كيل هناك عالم اللاهوت ليپسيوس[١٨]، واستاذ التاريخ القديم فون گوتشمت[١٩]. أما بين تلاميذه فى ستراسبورج فهناك خصوصاً ى. بارت[٢٠]، الاستاذ السابق فى برلين، وبيفان[٢١] الاستاذ الحالى فى كامبردج، وبيتزولد[٢٢] وبرونو[٢٣]، الاستاذان السابقان فى هايدلبرج، وفرينكل[٢٤] الاستاذ السابق فى برسلاو، وجيورج ياكوب[٢٥]، الاستاذ الحالى فى كيل، ورودوكاناكيس[٢٦]، الاستاذ الحالى فى غراتز، وسنوك هرگرونيه[٢٧]، الاستاذ الحالى فى لايدن، وتورى[٢٨]، الاستاذ الحالى فى نيوهيڤن، كونكتيكت بالولايات المتحدة الامريكية. وكانت تربطه بالعلماء دى خويه فى لايدن، وجويدى[٢٩] فى روما، وجولد-تسيهر[٣٠] فى بودابست، وراينش[٣١] فى ڤيينا، وج هوفمان[٣٢] فى كيل صداقة متينة. وكان كل من نولدكه وڤلهاوزن يقول عن الآخر إن الآخر أهم منه نفسه بكثير. وكان يتبادل الرأى بنشاط مع إدوارد ماير[٣٣] وإدوارد شڤارتز[٣٤]. وكان يكرس وقتاً طويلا للاتصال الخطى مع أصدقائه وزملائه. وكان فى مراسلاته أميناً منتظماً.

وإنه ليشبه الاسطورة الخيالية أن هذا الرجل الهزيل الجسم، الذى بلغ عدد منشوراته العلمية ما يقارب السبعمائة بحث، والذى كان يساهم بنصيب فعال فى أعمال كليته وجامعته ومصير وطنه، والذى كان قارئ صحف نشيط، والذى كان يحضر كل محاضرة وكل تقريظ علمى للكتب الجديدة تحضيراً فى غاية الدقة والتمحيص والتفصيل كان يجد رغم كل ذلك متسعاً من الوقت لكتابة عدة آلاف من الرسائل. وفى الأعوام الأخيرة من حياته كانت رسائله تبدأ غالباً بالشكوى من ضعفه الجسدى، ولكن سرعان ما كانت تتلو ذلك تعليقات علمية وسياسية فعالة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأرادته الحديدية فى رفض كل ما كان يعوقه عن العمل. وكانت تساعده فى ذلك بكل حرص وعناية زوجه المخلصة التى اختطفتها يد المنية منه عام ١٩١٦.

وكثيراً ما كان نولدكه يدعو نفسه بالعقلانى؛ ولكنه لم يكن كذلك بالمعنى المألوف لهذه الكلمة. ويمكن أن ندعوه بدلا من ذلك ممثلا للعقل الإنسانى السليم فى الشئون العلمية؛ أما فى المسائل الشخصية فكثيراً ما كان يصبح عاطفياً تماماً. وكان ينفر من كل ما هو رومانتيكى وصوفى. ولذا فانه لم يهتم كذلك بدراسة التصوف الشرقى، الذى لعب من دون شك دوراً هاماً جداً فى الإسلام. وقد رافقته روح الفكاهة حتى آخر أيامه وساعدته على التغلب على كثير من المصاعب والمزعجات. وقد كان بوده أن يصبح مؤرخاً للأحداث العالمية، ولذا فقد غمرته السعادة الكبرى حين أظهر له تيودور مومسن[٣٥] اعترافه بعلمه، عندما اعترض نولدكه على بعض ما جاء فى بحث لمومسن حول السياسة الرومانية فى الشرق الأدنى.

لقد كان تيودور نولدكه يمثل العالم الألمانى من الطرز القديم فى ذرى كماله. ومن صفاته أيضاً أنه كان، رغم معرفته التامة الحقة بنفسه، متواضعاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى؛ فقد كان ينفر من كل جعجعة فارغة وغرور وحب للظهور.

لقد ولى بفقده عهد عظيم من عهود العلم البشرى.

ترجمة: محمد على حشيشو

▶ صحيفة عن كتاب نولدكه حول النحو العربى بحواشى المؤلف.
مأخوذة عن الطبعة الجديدة لهذا الكتاب الذى اصدره الاستاذ انتون شپيتالر فى جامعة ميونخ، دارمشتاد ١٩٦٣.